الرؤى الحادية عشر

روح

هبة محمد عباس

ماذا لو أعلنا العصيان على التقاليد ؟ هل سنهزمها أم ستهزمنا ؟

تلك الروح تحترق شوقًا لرؤية الحبيب الحاضر بالخيال والغائب بالواقع..متى يتحول الخيال إلى حقيقة؟

هبة محمد عباس

obeikan.com

روح

آثار انتباهها ذلك منذ رأت صورته أول مرة صدفة، تحولت من فتاة هشة لفتاة قوية صامدة، وكأنها كانت تبحث عمن تُخفي فيه هشاشة روحها، ذاب صخر قلبها وجمود روحها تجاه هذا الذي يُسمي "نادر"، لا تعلم ماذا ستفعل حتى ينتبه لها؟ وقررت أن تتحدث معه، ولكن زحفت مخاوفها، وداخلها تزاحمت التساؤلات، فمثلًا: ماذا سيقول عنها في عقله إذا ما تحدثت معه؟ ولكن جاهدت من أجل أن تفعل ما يروق لها، وبالفعل انتحلت حجة لتتبادل معه حوار كي تُنفذ ما يجول بخاطرها، لكن القدر لعب لعبته وحديثهم لم يتخط الثلاث كلمات، وكل منهما غادر صندوق أسراره، ونسى تلك الدقيقة وكأنها لم تكن.

مرت أعوام وظهر من جديد أمامها يُحادثها ويراسلها، عندما رأت رسالته تذكرت جيدًا صورته التي كانت قد غابت عنها منذ مضى آخر حديث بينهما، ولم تستوعب ماذا حدث ليذهب إليها بذاته ويُحادثها مرة أخرى؟ لم تصدق أنه هو، تلاعبت الأفكار في خيالها، استمرت صامدة لدقائق، أجابته ببرود، فقد أرادت أن تُعاقبه، ولكن تساءلت ولِمَ العقاب؟ وماذا فعل لأعامله هكذا؟ وتراجعت عن برودها وتبادلا الأحاديث ما يقرب من ساعة، وانتهى حديثهم وعاد كلٌ منهما كأن شيئًا لم يكن.

(البداية دائمًا)

تُماثل تمامًا شعورنا بأول كلمة حب رَوت روحنا، فأغمضنا أعيننا وزُلزِل ما بداخلنا، وفاح عطر الحب ليغمر شفاهنا فنبتسم، ثم تخرج من بين ضلوعنا تنهيدة لا إرادية، فيها وبها نتمنى لو يقف العالم بأسره عند حدودها، ولا نتمنى أن يحدث شيء يُعكر صفوها يومًا ما، شَعَرَت معه بأنها فقدت الذاكرة لتصير كورقة بيضاء خالية من أيِّ حزن، كأنها لم تحزن من قبل، ولكن الخوف ظل يحاوط قلبها، ماذا ستفعل حتى تكف عن تأنيب ضميرها؟

تعلم أنها تسير على طريق خطأ، ولكن إعجابها بـ "نادر" أخمد ما تشعر به، حاولت جاهدة أن تهرب من أفكارها، واتجهت إلى الصلاة تُناجي ربها، حتى تتساقط الهموم من عليها، وتُخبره بما تشعر به تجاه من امتلك قلبها، وكررت اسمه في سجدة طويلة نهضت منها والسعادة تغمرها - السعادة التي أرادتها نفسها وزينها لها الشيطان انتظرت ساعات كيّ يُحادثها، ولكن غطَّت في نوم عميق، فقد غلبها النعاس، حتى أتت رسالة منه، نهضت مُسرعة من فراشها تبحث عن هاتفها الذي لا يُفارقها.

تحدثا لبضع دقائق، وتركها مع خيالها تسبح معه كيفما تشاء، رسمت ذلك بريشة أحلامها، صورة من كانت تنتظره أن يأتي إليها

ويخطفها من أحزانها التي استغرقت سنوات، كانت تتمنى أن يصبح لها وطنًا يحتضنها، يُلملم انكسارها وخوفها وهفواتها وجنونها واحتياجها وضعفها، تصارع النوم كل ليلة من أجله، حتى لا يفوتها لحظة بالحديث معه، أحبَّت محادثته ليلًا ونهارًا، لكن ظروف عمله تعوق ما تتمناه.

الضيق والرهبة تزداد يومًا تِلو الآخر كلما ابتعد عنها، وعندما يقترب أو يظهر تختفي تمامًا، لا تعلم عنه شيئًا فقد تعلقت بصورة وبضع كلمات فقط، تماثل تمامًا طفلة مُتعلقة بصورة أبيها الذي تركها منذ صغرها، ولا تعلم شيئًا عنه، وظلت تبحث عنه منذ فترة بعيدة حتى وصلت إليه، لكن ما رأته منه هو جفاء في كلماته معها، ولكن هي لن تكف عن ملاحقته، فما بنته في خيالها، وترسَّخ في عقلها يجذبها، بل يُجبِرها أن تظل هكذا معه، حتى وإن أبى هو، لأنها ببساطة تفتقر لمعنى الاحتواء والاحتضان والاهتمام داخل إطار عائلتها، أما هو، فهو الملاذ الوحيد لتنعم بكل ما تفتقده.

ثانية تلو الأخرى يزداد تعلقها به، وتناست أنها فتاة، ولا يحق لها أن تتحدث بما تشعر به تجاه رجل، وهذا ما اكتسبته من العادات والتقاليد التي تنفذها كثير من الفتيات في علاقاتهم، كالضرير الذي لا يرى سوى الظلام، أعلنت تمردها وتحررت من قيودها، وجاء

اليوم واعترفت له بما تشعر به تجاهه، استقبل كلماتها بغموض كعادته، وأنكر أنه فهم ما تشعر به تجاهه.

ولكن قد خابت آمالها فيه، وبدأت تكتشف ما هي حقيقته؟

فأجابها على تساؤلاتها لأول مرة بما يكفيها، فقد وضع حدودًا وإطارًا واضحًا لعلاقتهما، وأخبرها أنه لا يشعر تجاهها سوى بالاحترام والتقدير، وأنه يرى فيها صورة مُثلى للصديق الذي لطالما بحث عنه، وأنه لا يؤمن بالحب الذي يأتي عن طريق المواقع الإليكترونية، فالحب يصبح حبًّا حينما يكون على أرض الواقع، ليس في الخيال أو الافتراض.

اتفقا أن يكون ما بينهما صداقة لا أكثر، إلا أنها مازالت تشعر أن ما بينهما هو أكثر وأكثر، وتسلل الحنين لثنايا قلبها رويدًا رويدًا، وزاد تعلقها به أكثر حتى أعلنت لذاتها أنها وصلت معه لحدود الهذيان، لكن ما الفائدة؟ تريد رجلًا لا يريدها، يتحدث معها على سبيل الذوق والاحترام، ولكن هي لا تهمه، ولا يهتم لأمرها، ولا تشغل حيز تفكيره مثلما هو يشغل كل عقلها، هل ستتركه وتُعلن الحداد على خيالها؟ كعادتها كلما شعرت بضيق تذهب وتُناجي ربها ليستأصل وجعها، ألحت إلحاحًا شديدًا طوال سجدتها، حتى أتى ما تنتظره، ولكنه لم يكن في الحسبان، ولم يُرض خيالها.

كانت تشعر بها وتعلم أنها آتية لا محالة، إنها النهاية التي سوف تأتي يومًا ما، وينزل ستار الختام لهذه المعاناة، وحكاية لم ولن تكتمل، تجسدتْ فقط في الخيال، في مجتمعنا هذا نرى أن الفتاة لا يحق لها التعبير حتى عن شعورها تجاه أقرانها، ويقيمون الحد عليها لأن هذا التعبير من شأنه التقليل من قيمة الفتاة، وأنه يُضيع حياءها وسط مثيلاتها من الفتيات، وأن الظلام هو السبيل الوحيد للتعبير، وهذا ما حدث معها، فقد لجأت "روح" للخيال حتى تنعم براحة الفؤاد والبال.

انقطعت خيوط التواصل بين "روح" وذاك الذي أشعل فُؤادها للأبد، ولكن أغرب ما في الأمر ضيقها وخوفها لم يعد لهما مكان، وقررت أن تدفن مشاعرها، وتوافق على أول خطيب يأتي إليها دون النظر إلى الوراء، وخاضت تجربة الزواج من رجل لا يعلم عنها إلا القليل، وهي أيضًا، لتهرب معه بصحبة مشاعرها البريئة المُحرم إعلانها إلا في الخفاء، وعادات وتقاليد وحرمان من الاحتواء والاهتمام، وتمنت أن يكون هو الآخر مُختلفًا، وتجد عنده ما تبحث عنه، وبعد شهور من زواجها مازالت تلك المشاعر المدفونة تطغى عليها كل ليلة، وصارت فتاة بائسة في عالم شيدته لتهرب من جريمتها التي ارتكبتها بكامل إرادتها، خوفًا من إعلان العصيان على العادات والتقاليد التي اكتسبتها من المجتمع، لتتخلص من معايرته ومحاكمته لها، ولكن أين تفر من تأنيب الضمير؟

و ذلك القلب الذي يؤلمها كل يوم كلما تفتح جفونها وتجد ما شيدته خيالًا اختلقته لتعيش سعادة مؤقتة تحتاجها، وتتأجج الآلام كلما تذكرت زواجها المُزيف، الذي يُشبه الجسد بدون الروح، استيقظت من نومها لتقوم بتحضير الفطور لزوجها "مصطفى" كغير عادتها بعد أن أخبرها أمس أنه سيسافر لفترة بعيدة خارج البلاد، اتجهت إلي غرفته لتوقظه وأكملت هي تحضير الحقائب حتى انتهت، سافر زوجها وبقيت هي كما هي، السعادة غائبة عنها ولا تزورها حتى أتى اتصالٌ من زوجها يخبرها بابن عمه "فريد" الذي جاء من خارج البلاد، وليس له أحد غيره ليقيم معها فترة حتى تنتهي إجازته ويسافر، أبت هي أن تقيم مع رجل غريب ولكنه طمأن قلبها بعد أن أخبرها أنه يصغرها بسنوات، وهو مثل أخيه، وافقت بعد أن أصر على رأيه.

استقبلت "فريد" كما أمرها زوجها، واستمرت لأيام عدة في غرفتها لا تخرج منها إلا ليلًا، بعد أن يذهب هو إلي غرفته، وفي يوم من الأيام سمعت صوت ابن عم زوجها يتقيأ، اتجهت إليه مسرعة ودقت باب الغرفة مرات عديدة، ولكن لم يجبها، فتحت الباب وجدته مغشيًّا عليه، ذهبت إليه والخوف يملأ قلبها وعملت على إفاقته حتى فشلت، أمسكت هاتفها واتصلت بالطبيب، حتى أتى

إليها وعلمت منه أنه مصاب بمرض السرطان بالمعدة، ولا بد أن يخضع للعلاج، وأي تأخير ليس لمصلحته.

اصطحبته إلى المشفى حتى يبدأ العلاج، وبقيت بجانبه طوال فترة علاجه لأكثر من ثلاث شهور، وهي لا تعلم لماذا تفعل ذلك؟ هل تطيع أوامر زوجها أم ماذا؟ ولِمَ ساق القدر هذا الرجل ليدخل حياتها ويجعل من وجودها معنى؟ لماذا؟ دارت تلك التساؤلات في ذهن وقلب "روح" دون أن تقف على إجابة تُشفيها، أحب اهتمامها به، وهي أيضًا اعتادت على وجوده معها في المنزل، وأصبحا صديقين مقربين بعضهم لبعض، أخبرته بزواجها المزيف، وكيف أصبحت حياتها أفضل مما سبق، باتت مشرقة، وألوان الربيع تقيم في وجهها، وأن كل ما تراه أمام بصرها أصبح له معنى وشغف خاص.

يومًا عن يوم يزداد تقربهم من بعض، حتى جاء اليوم واعترف "فريد" بمشاعره تجاهها، وكانت هي أيضا تبادله نفس المشاعر، ولكن فضَّلت الصمت بعد أن علمت من زوجها أن " فريد" يصغرها بعشر سنوات.

-استهانت بحديثه قائلة بسخرية: أتعلم؟ بعد شهرين سيكون عمري خمس وثلاثون عامًا.

- أجابها ما علاقة هذا بما أخبركِ به لتقولين هذا؟

-صمتت وتحججت لتهرب منه واستأذنت وذهبت إلى غرفتها، ظلت تفكر فيه ولكن فارق السن الذي بينهما كان أكبر عائق، وقررت أن ترجع كما كانت لا تخرج من غرفتها حتى تطمئن أنه لا أثر له في المنزل، لكن هو قرر أن يختبئ في غرفته حتى تخرج ليتحدث معها قبل سفره، وبالفعل خرجَت من غرفتها كما ظن هو بعد سماع صوت باب المنزل، لكنها خرجت متجهة إلي غرفته تحتضن وسادته، وظلت تبكي وتصرخ أحبك، ولا أريد أحدًا غيرك، ولكن العائق الذي بيننا يمنعني أن نتجاوز حدودنا، سمع هو كلماتها ولكن أستحي أن يخرج من وراء الستار حتى غطت في سبات عميق، ظل ينظر إليها لساعات حتى أحست بوجوده، نهضت من فراشها وقلبها يخفق، والخجل يحاوطها، حتى أمسك ذراعها قائلًا:

- لماذا تستمرين في زواج يأخذ منكِ روحك؟

- لماذا لا تطلبين الطلاق؟

- أجابته: بالفعل سأفعل ذلك، ولكن أنا وأنت لن نكون معًا حتى وإن حدث ذلك.

- قال بغضب: لماذا؟

-اجابته العائق الذي بيننا أكبر، أنت تعلم وأنا أعلم.

- لا أعلم شيئًا سوى زواجك المزيف، ولم أجد عائقًا بيننا غير ذلك.

الصمت للحظات يسود المكان، وكسر صمتهما صوت الباب.

عاد زوجها من السفر.

استقبلاه بفرحة مصطنعة، ذهب لغرفته يرتاح قليلًا، ولكن ما سَمعَه اليوم من زوجته وابن عمه قتل النوم في عينه، وقرر أن يتحدث مع زوجته وابن عمه بعد العشاء، أصبح الحزن يسود وجوههم منذ عودته، واجتمعوا على مائدة العشاء، وألقى سؤالًا على زوجته:

- ماذا ستفعلين إذا تزوجت عليكِ؟ هل ستطلبين الطلاق؟

- أجابته براحه لم تشعر بها من قبل: لن أطلب الطلاق لزواجك عليَّ، بل سأطلبه منك لأنني أظلمك وأظلم نفسي معك، أنا لا أحبك، وأنت لا تحبني، لماذا نبقي أنا وأنت تحت سقف واحد؟

- ضحك بسخرية قائلًا:- عظيم.

ثم نظر نظرات طويلة حزينة لـ " فريد" قائلًا:

لو أنك تزوجت يا ابن عمي وأخي، وعلمت أنني أخونك مع زوجتك ماذا ستفعل معي؟

زادت ضربات قلب كل منهما بعد سؤاله، واستمرا في صمتهم ينظرون لبعض، حتى خرجت هي عن صمتها وصرخت في وجهه قائلة:

- شعرت معه ما لم أشعر به معك، وأشهد ربي أنه لم يمسني في غيابك، ولم أخنك، أو هو، ولو جئنا للحق فأنت من صنعت هذا، وصاحب اليد العظمى، والإثم الأكبر، فمن يرضى على نفسه أن يسكن مع زوجته رجل؟ مهما كان فهو غريب عنها في غيابه، فلا يستحق الشفقة أو حتى الملام على تفكيره المريض، والآن أنا أريد الثأر لكرامتي ولو لمرة بالعمر، وأطلب الطلاق بكل ثقة لأني لست نادمة على قراري هذا، حتى وإن لم أجد مكانًا يأويني.

أحببت وجوده بجانبي، احببت اهتمامه بي، شعرت معه بسعادتي الغائبة منذ دخولي ذلك المنزل، احتضن كل مخاوفي، أصبح لي الصديق، والأخ والحبيب، هذا ما تمنيته، وقد دق قلبي لأول مرة بصدق، وهذا ما فتشت عنه فيك ولم أجده، وأعلم أنه بما أخبرتك سأصبح في نظرك ونظر المجتمع فتاة عاهرة، ولكن لن أسمح من اليوم أن أكون فتاة ساقطة لرجل في خيالي، وما أريده سأفعله، ولن يُضِّيق الخناق عليَّ من أحد حتى وإن كان أنت.

تلك الحياة نعيشها مرة واحدة وما يذهب منها لن يُعوض،

واترك لي ما تبقي من عمري لأعيش بسلام، حتى ينعم الله عليَّ بنعمة الإنجاب.

سمع " فريد" كلماتها فتوقفت ضربات قلبه، وسمعوه وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة قائلًا: سامحني يا " مصطفى" لن أتوقف عن حب زوجتك حتى يقبض الله روحي، وأشهد ربي أنها صانتك في غيابك وحافظت على شرفك، وما لبث حتى لفظ أنفاسه، و هل تظنون أنها قد تحررت هي من زواجها المزيف؟

بالطبع لا، لأنها هشة ضعيفة، لا زوج يحتويها، ولا أهل ولا سند، كصديق أو رفيقة لها، ظل بداخلها عالم مليء بالآهات والدموع حزنًا على وفاة حبيبها، ولكن شاء القدر أن يجمع بينهما في العالم الآخر، فلم تحتمل كثيرًا البقاء في هذه الغابة والمجتمع المقيت، وفاضت روحها إلى بارئها ورافقت حبيبها في عالم آخر يملؤه العدل الذي افتقرت إليه حياتها.

(النهاية)

هذا هو المصير الأسود لكل فتاة تفتقد حضنًا يحتويها منذ نعومة أظافرها، تنضج وينضج معها حرمانها، وتسّيطر عليها عاطفة الحرمان، والشعور بأن هناك نقصًا يُعيبُ شخصها، وتضطر أن تبحث عما يُشبع احتياجها، فلا تجد سوى العالم الافتراضي

تبحث فيه عما افتقدته، وحينما وجدته، يهرب منها كلمح البصر، فتخشى أن تواجهه وتُحمل ذاتها فوق طاقتها، تفر وتستسلم لمصير مجهول المعالم، وتختفي في حضن لم تشعر فيه بنفسها.

ولكن قد فات الأوان عندما أتى ما تنتظره، وتناست عِوَضَ المعبود الذي يكاد يكون أقرب إليها من حبل الوريد، ولكن لم تطق أن تصمد لتنجح في الاختبار حتى يأتي إليها ما تتمناه، وأجهدت نفسها حتى فنيت روحها وفقدت رغبتها بالحياة.

نعمة بحمد الله

obeikan.com

هبة محمد علي عباس

عمري سبع وعشرون عامًا، أقيم في الزقازيق الشرقية.

حاصلة على ليسانس آداب قسم فلسفة عام ٢٠١٢.

حاصلة على دبلومة تربوي عام ٢٠١٦.

هذا هو ثاني عمل يُنشر لي، بعد نجاح المجموعة القصصية "وعد الروح"، شاركت فيها بقصتين باسم (الصفعة - القوة الصامتة).

لكتابة تُغنيني عن ضجيج من حولي، أجد فيها ما ينقصني، أرسم بكلماتي شخصيات أتمنى أن أجدها في واقعي، شخصيات يحوطها الطهر والنقاء والبراءة، ليصبح العالم أفضل ...

للتواصل معي عبر موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك:

HeBa Muhammad Aba

obeikan.com